من ليفي إلى ترامب:
تآمر ينكسر على جدران المقاومة وأسوار القدس

د. محمد عبد الكريـم مسعود
(باحث سوري)

بشكلٍ متواصل، تتباكى العديد من الأنظمة العربية على القضية الفلسطينيّة، ليس بعد قرار ترامب نقل سفارة الولايات المتحدة إلى القدس فحسب، بل منذ بدايات هذه القضيّة وما يسمى بالنكبة في العام ١٩٤٨م، مروراً بالنكسة (١٩٦٧م) وقصف إسرائيل المتكرر لغزة وجنين وغيرهما من المدن الفلسطينيّة منذ بدايات الألفية الثالثة. وفي هذا المقام تتبادر إلى الذهن مجموعة تساؤلات، لعل من أهمها:

هل تشعر تلك الأنظمة العربية بالأسى – فعلاً – على القضية الفلسطينيّة؟

هل قدّمت ما بإمكانها لنصرة هذه القضية؟

هل كان لها – من الأساس – دور في حدوث تلك النكبة والنكسات؟

للإجابة عن هذه التساؤلات، لا بد من العودة إلى الوراء، وتحديداً إلى الوعد الذي قطعه الملك عبد العزيز للمندوب السامي البريطاني في مصر بقبول الكيان الصهيوني في فلسطين، ثمّ العمل على إخماد ثورة عام ١٩٣٦م، والتخاذل لاحقاً من أكثر من طرف عربي في نكبة فلسطين عام ١٩٤٨م، وصولاً إلى مبادرة السلام العربيّة في بيروت عام ٢٠٠٢م التي قوّضت وسحقت قمة اللاءات الثلاث. ذلك الدور لا يزال – في واقع الحال – مستمراً إلى يومنا هذا، وذلك من خلال القضاء على أي جهة أو مجموعة عربية تهدف إلى مقاومة المشروع الصهيوني في المنطقة؛ فكان أن تم غزو العراق ومحاولة تمزيقه سياسيّاً واقتصاديّاً واجتماعيّاً، والترويج لمشروع الشرق الأوسط الجديد الذي بشرت به وزيرة الخارجية الأمريكيّة آنذاك كوندوليزا رايز، واضعة من خلاله الخطة الكاملة لما أسميه "الخريف العربي". وحتى يؤدي ذلك الخريف دوره على أكمل وجه، كان لا بد من تهيئة مجموعة من الأدوات التي

تشكّل مرتكزاً لانطلاقه في الدول العربية المستهدفة، وقد تمثّلت هذه الأدوات بمجموعة من المتمشيخين والمفتين وأصحاب الأقلام والحناجر الذين يعتمدون على التجييش الديني والطائفي والمذهبي بعد أن تم إعدادهم إعداداً جيّداً كالقرضاوي وآل الشيخ وعزمي بشارة وغيرهم.

مهمّة تلك المجموعة كانت العمل على إثارة الفتن والنفور بين الطوائف والمذاهب في الدول العربية المستهدفة، ومنع أيّ تقارب فيما بينها مهما كان، ومن ثمّ التمهيد لأي تلاقٍ أو تطبيع عربي مع العدو الصهيوني نفسيّاً واجتماعيّاً ودينيّاً. كل ذلك كان يتم - آنذاك - بقيادة وإشراف (برنار هنري ليفي) منظّر الحركات الانقلابيّة في العالم، والتي تخدم الولايات المتحدة وربيبتها إسرائيل؛ إذ عمل ليفي على تطبيق مجموعة من النظريّات التي جُرّبت سابقاً وكانت ناجحة، وطلب من القيادات المفترضة لتلك التحركات في الدول العربية تنفيذ خطّته التي أعدّها بإحكام بعد أن درّب تلك القيادات من خلال دورات مكثّفة، متّبعاً في ذلك استراتيجيات متنوعة كالامتثال والجذب، ومستخدماً أسلوب (تعليم التفكير) والذي يعد بمثابة علمٍ ظهر بعد الحرب العالميّة الثانية، حيث يكون ذلك الأسلوب فعّالاً بعد إتقان مهارات الاتصال والتواصل والشحن العاطفي الذي يعمل عمل الأدرينالين في الجسم فيثبّط عمل التفكير المنطقي ويقوّي الفعل المنعكس أو ردة الفعل، فحرف ليفي بذلك مسار التفكير العربي والإسلامي في قضاياه الأصيلة، وحوّل الصراع العربي الصهيوني إلى صراع طائفي مذهبي (عربي – عربي، وإسلامي – إسلامي). وفي الوقت نفسه، قامت بعض القيادات العربية - ولا تزال - بالترويج لنهج ليفي - سالف الذكر - والانسياق خلفه إمعاناً في تنفيذ الدور الذي كُلّفت به.

لكن على الرغم من كل الجهود والاستراتيجيات والأساليب التي اتبعها برنار ليفي وتبنتها - طائعةً - بعض القيادات العربية، فإن الرياح تجري أحياناً بما لا تشتهي السفن؛ إذ سرعان ما ظهرت مجموعة من العقبات التي أفشلت نجاح ذلك المخطط، ولعل أبرز تلك العقبات:

أولاً: حرب تموز عام ٢٠٠٦م التي فضحت الحكّام العرب وأثبتت أن العدوّ الصهيوني مجرّد وهمٌ قاموا بتضخيمه لتنفيذ مخطّطات أسيادهم؛ إذ خلطت نتائج تلك الحرب

الأوراق، وعززت التفاف الشعوب العربية حول محور المقاومة وتفويضها أمر حمل قضاياها المصيرية، كما أظهرت أن أي محاولة لاختراق ذلك النسق المقاوم تبدو مستحيلة.

ثانياً: انتصار الدولة والقيادة والشعب السوري على العصابات التي زُجّ بها لتدمير قلعة الصمود الأكبر في وجه تنفيذ مخطّط الإجرام، وذلك على الرغم من الضخ المالي والإرهابي والإعلامي الذي لم يسبق له مثيل في التاريخ؛ فكانت المفاجأة في صمود الشعب والجيش والقيادة، وفشلت نظريات ومخطّطات برنار ليفي ومشغليه.

ثالثاً: خروج المارد اليمني (أنصار الله) من قمقم الوصاية السعودية بقوة لم تعهدها السعوديّة من قبل، متسلّحاً في ذلك بعزيمة لا تنثني، ومنهج قويم لا يعرف المواربة، وسياسة واضحة لا يحرفها تهديد ولا إغراء. فجاء حينها القرار بإعادة هذا المارد إلى قمقمه، وذلك عبر إنشاء ما يسمّى "التحالف"، وبقيادة إسرائيلية بامتياز وليس كما يظن أنها قيادة سعودية، فالسعودية لا تعدو كونها مجرد عضو منفّذ ودافع للتكاليف مع أشقائه الإماراتيين والقطريين.

في واقع الحال، وعلى الرغم من أن تحالف العدوان على اليمن قد استخدم ترسانته كلها وموارده (ولا يزال) في محاولته إعادة اليمن إلى قمقم الوصاية كما كان؛ إلا أن الصمود الأسطوري لليمنيين بقيادة أنصار الله قد شكّل - ولا يزال – مفاجأة صادمة لمخططات التحالف فكان القرار بتدمير اليمن بكل مكونات (البشر والحجر والشجر)، وفرض حصار لم يُبقِ لليمنيين إلا الهواء، ولو استطاعوا لمنعوه. في المقابل، استطاع رد اليمنيين الوصول حتى العاصمة الرياض عبر الضربات الصاروخية الباليستية. ذلك كله يحدث بالتزامن مع القضاء على داعش في سورية، وملاحقة فلول الإرهابيين في الجيوب القليلة المتبقية، وفي ظل تصاعد الحديث الإقليمي والدولي عن بوادر للحل السياسي، وهو الأمر الذي يُعدّ إعلاناً صريحاً بفشل الولايات المتحدة والكيان الصهيوني وأزلامهم في المنطقة في تنفيذ مشروعهم التآمري الذي استغرق الإعِداد له عشرات السنين وصرفت عليه آلاف المليارات، وأوكلت أهم مفاصله إلى برنار هنري ليفي.

في ظل واقع الفشل ذاك، وفي محاولة لقلب النتائج واستباقها، كان لا بد للمتآمرين من الانتقال إلى الخطة (ب)؛ فكان أن قام الرئيس الأمريكي ترامب بإعلان قراره بنقل سفارة بلاده إلى القدس المحتلة، وذلك بالتزامن مع ظهور ملامح التطبيع بين دول الخليج والكيان الصهيوني إلى العلن، وفي ظل موجة الفتيا التي أطلقها العديد من المتمشيخين في دول الخليج وبعض الدول العربية متضمنة الحكم "شرعاً" بأن إسرائيل ليست عدوّاً وأن قتالها يُعدّ حراماً. وليس ذلك فحسب، بل إن إيران بما تمثّله من دعم للتيار المقاوم (الشيعي الرافضي الكافر في نظرهم)، وكذلك التيار المقاوم (أنصار الله وحزب الله والمقاومين في سورية والعراق)؛ هم الأعداء الحقيقيون. كل ذلك إنما يتم من أجل تهيئة المناخ والأرضية لنسف أسس القضية الفلسطينية، وقلب المعطيات الواقعية لمظلومية الشعب الفلسطيني من خلال تسويق المقولة الزائفة والادعاء الباطل أن الفلسطينيين هم - في الأساس - الذين يعتدون على إسرائيل، بحيث يتم تهيئة الشعوب العربيّة للقبول بهذا الأمر.

من الواضح أن مشاهد مسلسل التآمر المعاصر على القضايا العربية وعلى رأسها قضية فلسطين من الصهاينة والأمريكان وأتباعهم من الأنظمة العربية لا تزال مستمرة، لكن من الواضح أيضاً أن المفاجآت المخيبة لآمال أولئك المتآمرين لا تزال تتوالى، فكما انكفأت نيران برنار هنري ليفي بسقوط المؤامرة وفشلها في سورية ولبنان واليمن والعراق بصمود محور المقاومة وفاعليته الشعبية؛ فإن مآلات آخر فصول المؤامرة المتمثل في قرار ترامب بنقل السفارة الأمريكية إلى القدس لن يكون أسعد حظاً من سابقيه، ويمكن لنا أن نجزم بأن ذلك القرار قد حرّك المياه الراكدة، ويعد بمفاجآت ليست ببعيدة وغير سارة لحلف المتآمرين، وستظل الدولة السورية باقية وقوية على غير ما تمناه أولئك، وسيواصل حزب الله في لبنان مشواره المقاوم في ظل المزيد من القوة والمنعة، وسيتلاشى قريباً الأمل الأخير لأولئك في اليمن ويذهب أدراج الرياح، فأنصار الله والجيش اليمني ومن ورائهم الشعب اليمني لا يزالون يسطرون ملاحم أسطورية من الصمود والتحدي الذي سيتحدث عنه التاريخ.

إجمالاً، لقد أيقن المتآمرون يقيناً لا يدع مجالاً للشك، أن القضية الفلسطينيّة ستبقى القضية المركزية للعرب والمسلمين.